ضياع ماء البئر

شعر

د. عايدي على جمعة

كتاب نون

الكتب السابع والعشرون

أغسطس 2011

رقم الإيداع بدار الكتب والوثائق

2011/15353

الإهداء

إلى :

جمال على جمعة

وخالد محمد إبراهيم

خالص الود

عایدی

ذکری

ذكرى

دوحة جميز

منفردة

فى رأس الحقل

تتلقى أشواق الأنداء

وأول ضوء

وطيور تفتح عينيها

للشرق

نسمات الصبح

تتخلل أوراق الجميز

ومياه الترعة تتهادى

فى همس

وأنا أتذكر

حبى الراحل

دون رجوع

ثلج

ثلج

أومأت لشمس

أن ترحل

رحلت

فى صمت

هبط الثلج

على طرقات القرية

ندف الثلج

على أوراق الأشجار

كان حبيبى

يمعن فى البعد

حاولت

أمد يدىّ

لأرجع هذى الشمس

كان الثلج يجمدنى

لا أقدر أن أتحرك

لكن

دقات فؤادى

عند هجوم الثلج

كانت ترسم

وجه حبيبى

أطفال

أطفال

كنا أطفالا فى الشارع

نأتى بزجاجات فارغة

نملؤها بالجاز

نحشوها بفتيلة قطن

نحكم سدادتها بالطين

نربطها فى حبل ممتد

بين نوافذ بيتين

نشعلها ثم نصيح

صياحا مجنونا

تسمعه كل بيوت القرية

ها قد نوّر شارعنا

لكنى حين رجعت

إلى قريتنا

بعد غياب

أبصرت الأطفال

الأصحاب

قد وخطهم الشيب

لم يتذكر أحدمنهم

نور الشارع

فى طرقات القرية

أطفال

يبنون عوالم أخرى

لكن فى قلبى

مازال الطفل

يبغى أن

يجمع معه الأصحاب

كى يرجع نورا بكرا

للشارع

حلیب

حليب

ماشية يتعالى منها الصوت

يتعالى وغبار القرية

عاد الفلاحون إلى الأكواخ

بعد غروب الشمس

والزوجات ينرن زرائب قريتنا

يربتن بأيديهن البيضاء

على ضرع الأبقار

وأنا وصغار القرية

فى أبواب زرائبها

كى نشرب قبل الأسرة

من حلب الأبقار

لكنى حين رجعت إلى قريتنا

بعد غياب

لم أبصر

أحدا من

أطفال القرية

فى أبواب زرائبها

ينتظر الحلب من الأبقار

وداع

وداع

وقفت أقدامى

فوق الشاطئ

حين انطلق القارب

يحمل فاتنتى

فى صمت

كان الموج

يعلو بالقارب

ثم يغور

ويعلو

امتدت يدنا اليمنى

عبر الموج

فالتقتا فى نجم لامع

مرت برهة وقت

عادت يمنانا

سيرتها الأولى

رحل حبيبى

لكن عيونه

لم ترحل أبدا

أبدا

من مرآة القلب

فأس

فأس

كان أبى

يتلقى إيقاع الزمن

الهارب

بالقلب

يحمل كل صباح

فأسا يعشق

طين الأرض

كان أبى

مفتول العضلات

يتورد بالأشواق

حين انطلق

الزمن القارب

واشتعلت رأسى

بالشيب

عدت لبيتى

فى القرية

أبصرت أبى

يرفع فأسه

فى جهد

كى يسمع

إيقاع الأرض

بعث

بعث

كنا أطفالا

حين سرى فى

أنحاء القرية

أن الموتى

سوف يعودون

نهاية هذا الأسبوع

ظلت عينى تحلم

أن أبصر جدى

العائد من مقبرته

جاء الموعد

لكنى شاهدت

نساء القرية

متشحات بسواد

يحملن عناقيد الرحمة

ويسرن بصمت

لمقابر قريتنا

حصار

حصار

وأحاطت بى خيول الانتقام

لم أجد مأوى لقلبى

أو طريقا للفرار

عصبت عينى

وساقتنى إلى المأوى الحزين

خدشتنى

ثم ألقتنى إلى قعر الظلام

فجأة تنمو بقعر السجن أشواك جديبة

وطيور تعزف الآن أغانيها الكئيبة

عبثا حاولت أن أسمع صوت البلبل

فوق أغصان الصباح

عبثا حاولت أن أبصر روض المنزل

إذ تداعبه الرياح

عبثا حاولت أن أبصر وجها كان محفورا بقلبى

وأنقى فوق خديه الغبار

عبثا حاولت أن أسمع صوتا لحبيبى

آه من خلف الجدار

حينما صحت دعونى

جرحونى

حينما حطمت قيدى

فوجئ القلب بأطراف الخناجر

وأحاطت بى خيول الانتقام

وأحاطت بى خيول الانتقام

صلاة

صلاة

ضعى فوق رأس أبيك ثلاث قرب

لعل ثراه يصير عبق

وغنى بصوتك

علّ السكينة تهبط قلبه

أجل مقلتاه حجارة

مسامعه من حجارة

ورجلاه يا ابنتى من حجارة

تلفهما الأقمطة

وأنت تنادين

عبر المساء

لكى ينهض الآن من رقدته

وإن أبصرت مقلتاك فتى

يتهدج صوته

ويبكى

خذيه إليك

وضميه

تحت جناحك

أخوك هو الآن

هل تبصرينه

ضفائره تتهادى

على كتفيه

حزينة

لأجل أبيك

ألاتبسمان معا

ألا تضحكان معا

ألا تسكبان المياه

على وجنتيه معا

ليهوى الرجوع

ويهزم هاديس

فليحتضن فلذتيه

فليحتضن فلذتيه

رحيل

رحيل

سئمت الخناجر

دعينى أهاجر

سأرحل

من شرفة البيت

من غرفة الأنتريه

ومن غرفة النوم

من صورة العرس

من طبق للطعام

ومن كوب شايك

سأرحل

من صفحات كتابك

سأرحل

من رقصات الغصون

ومن أغنيات العصافير

من شاطئ للغرام

ومن دبلة الحب

من جمرات فؤادك

ومن وهجات خدودك

إذا ما تراخت جفونك

ثم تذكرت فارسك المستحيل

على صهوة للجواد

فإنى

سأرحل

من شطحات خيالك

إذا جاء وقت السحر

وأرسلت طرفك شطر السماء

فلاتذكرينى

لأنى

سأرحل

من همسات نجومك

ومن وشوشات عطورك

وإن مت يوما

بربك لا تبحرى فى البكاء

لأنى

سأرحل

من قطرات دموعك

دعينى أهاجر

دعينى

سأرحل

مثل النسيم الرقيق

بعيدا

وأترك عينك

فى صفحات الفراغ

بلا قبلة للوداع

لأنى

سئمت الخناجر

دعينى أهاجر

دعينى أهاجر

اغتيال

اغتيال

قبل أن يولد فى المهد

قتلته

ودفنته

ثم سرت العمر محزونا لأنى

قد فقدته

هل ترى يرجع يوما

ذلك المدفون فى قعر الرماد

قبل أن يقضى على

أيضيع الوهج

من عينى وقلبى

قبل أن يرجع لى

وأنا أبحث فى كل طريق

عن وسيلة

ترجع المدفون

من وكر الظلام

وأصلى

لشعاع الشمس

كى يدخل قبره

ولأمواه السحاب

عله يهوى الحياة

وأنا لست المسيحا

كى أصيحا

فيشق القبرعنه

ويقوم

إنه يرقد مرتاحا

وروحى فى اضطراب

أنشب الأظفار فى وجهى

وقلبى

وأسال الدم أنهارا

بدربى

ثم غاب

قبل أن يولد فى المهد

قتلته

ودفنته

ثم سرت العمر محزونا لأنى

قد فقدته

قد فقدته

اغتيال الصقر المجنح

اغتيال الصقر المجنح

كان هذا الصقر يلقى

بجناحيه الهواء

ويرى الآفاق ملكه

كان لا يقنع إلا بالقمم

وبعينيه مهابة

تجعل الطير يلاقى الانكسار

آه ما أروع ريش الصقر

ما أعلى شموخه

فوق أشجار النهار

فوجئ الصقر كثيرا بحجر

محكم فى قدميه

إيه يا صقر الصقور

أى شيطان رجيم أحكم القيد برجلك

أى شيطان رجيم أطفأ النور بدربك

أى شيطان رجيم يوقف النبض بقلبك

أيها الصقر رويدا

إن فى عينيك دمعا

وعلى رجلك آثار جروح

آه فى قلبك أوتار تنوح

غير أن الصقر فى قمة وجده

يرسل الآن جناحيه كثيرا

فى الهواء

فتدلى بين رجليه الحجر

يحجب الشمس

وأشواق الفضاء

بجلال سقط الطائر

فى

قاع

الحفر

نباح

نباح

الكلاب النوابح

تنبح فى الليل

قلبى

وتجرح فيه السكوت

الكلاب النوابح

تهجم عند المساء

على مقلتىّ

لكى تخنق الصوء فيها

وتطبق رمشى الصموت

الكلاب النوابح

تغرس أسنانها الحجرية

فى عمق روحى

كى لاتحلق

فى الملكوت

الكلاب النوابح

تجمع أطفالها

كى يكونوا لها عصبة

فى النباح

لكى لاتقع فى يدىّ

قطيرة ماء

وكى لاأقبّل

ورقة توت

الكلاب النوابح

تبنى جدارا

من النبح

كى يتباعد عنى حبيبى

وأبقى وحيدا

أموت

أجبرتنى الكلاب

على حمل سيفى

وتوجيه ضربته اليعربية

فى رأسها

ثم يبقى الشموخ نصيبى

وأصواتها

فى خفوت

خفوت

خفووووووووووووووو

ت

درب

درب

ساقتنى أقدامى يوما

فى درب

أحراش الغابة تجذب أقدامى

لا أملك غير السير

وكلاب تنبح

فى الأحراش

فى غمضة عين

تتراقص حولى

جمجمة

وتشد وثاقى

فأنا مشدود فى حبل

من أحراش

وجماجم حولى حراس

كان النهر

يجرى للخلف

وعيون الشمس

لاتبصر شبر

كان العبد الأسود

يتوارى خلف التل

يترصدنى

كى ألقى حتفى

من حربته

كان العلج الأبيض

يقعى فى غرفته المملوءة بالشاشات

كى أبقى

فى أوهاق القهر

جاء الجدب

يفنى أشجار بلادى

قالوا

فلنربط فوق البطن الأحجار

ونصلّ صلاة استسقاء

جاءت أمطار الرحمة

تسّاقط

زخات

زخات

نبتت أشجار

وثمار

لكن مازالت فوق البطن الأحجار

وثعالب قريتنا

بشمت

خوف

خوف

أخاف

إذا قلت يوما

أحبك

وأنك لى

تصير الحواجز بينى وبينك

ويهرب ضوء القمر

وأبقى وحيدا

بلا معجزة

ولكننى ياحبيبة

أسافر

فى موج شعرك

كل صباح

وأبحر

فى بحر عينيك

كل صباح

ويسجد قلبى

لبسمتك المطمئنة

كل صباح

هبينى

إذا مارأيت عيونى

ابتسامة وردة

وخصلة شعر

وأشواق قبلة

وأغنية باسمة

وإن غادرت مقلتاك القراءة لحظة

وأسندت رأسك للمقعد الخشبى

وأغمضت عينيك

سوف أجئ

أقبّل خديك

ثم أغادر غرفتك الحالمة

أصيخى

لكل نجوم السماء

فإنى أصخت إليها

وحدّثتها عن هواى

وصلّيت

من أجل أن يدخل البدر فى شرفتك

ويخبر قلبك أنى

أحبك

أحبك

أحبك

أبى

أبى

رأيت أبى

فوق ظهر الحصان

بديع المحيا

فصيح اللسان

يهزهز أسيافه

فى الفضاء

ويطوى السهول

ويطوى البقاع

ويبنى المدائن

يبنى القرى

ولكنه شاعر بالضياع

فأبناؤه عاودوا القهقرى

رأيت أبى

فى الرمال

وقد أطبق الموت

أجفانه الواهية

وخضبت الأرض سترته الزاهية

وفى قلبه طعنة غائرة

بجانبه سيفه

قد علاه الصدأ

وضاعت ملامحه الباترة

ذهبت إلى إخوتى فى المساء

دعوتهم واحدا واحدا

لعل أبى

حين يبصر أوجههم

يستمد الحياة

ويجعلهم يرفعون الجباه

وحين ذهبنا إلى قبره

لم نره

فهل سيعود أبى ؟

أبى يارجال

أبى ضاع فى الرمل

أم سرقته الأكف

لتدفنه بمقابر أعدائنا

تشوه جبهته الناصعة

وتقطع منه اللسان

لكى لايقص تواريخنا

أبى يارجال

رأيت أبى

فى المنام

تحدق أبصاره فى النجوم

ويكتب أيامه

فى سلام

رأيت أبى

نهرا سائرا لايقف

وحين صحوت

شعرت ببرد أنامله

فى الفؤاد

أبى لايموت

أبى لايموت

أمي

أمى

كانت جارتنا

ذات السبعين ربيعا

والمدفونة

تعدل طرحتها

فى الشارع

كانت تومئ

كى تتبعها أمى

أخذت أمى طرحتها

ثم انطلقت

دون حديث

وأنا فى الشارع

أنظر

جدی

جدى

عمدة قريتنا

يأتى مغبرّ الوجنة

والجلباب

من مقبرته

وأنا ورفاقى

فى ناصية الحارة

حين رأيت العمدة

سارت أقدامى

نحوه

ومددت يدى

لأصافحه

فأشاح بوجهه

فأنا لست المقصود

كان العمدة

يقصد جدى

وأنا فى الشارع

أنظر

كآبة

كآبة

عدت للمنزل بعد العصر متعب

صدأ يعلو المفاتيح معى

بعد لأى قد فتحت الباب فى السور الأمامى

ثم سرت فى الممر المترب

مالها الأشجار تبدو ذابلة

ويماماتى الكثيرة غادرت أعشاشها

بعد أن هبت عليها العاصفة

زهرة عطشى ولن تسقى بماء

فى الشقوق القاحلة

وغبار يتعالى فوق وجه السلم

يملأ الأنف وعينى المجهدة

ودخلت البيت على أستريح

سقف بيتى قد بدت فيه الشروخ

والخفافيش الكثيرة

آه ما هذى الحياة

زهرة عطشى ولن تسقى بماء

فجأة يخبو حريق المدفأة

أطفئت أنوار بيتى

أسدلت فيه الستائر

ها أنا أبصر بيتى يتهاوى

زهرة عطشى ولن تسقى بماء

تتهاوى

تتهاوى

تتهاوى

لقاء

لقاء

وحبيبة قلبى عند غروب الشمس

فى حقل القمح

ورعاة الأغنام

فى درب العودة

خلف القطعان

كانت ماشية القرية

تفرش أغصان أغانيها

فى الآفاق

وأنا عبر الأغصان

أراقب سيدتى الشمس

فى موكبها الملكى

يخرج طائر قلبى

عبر حقول القمح

كى يلقى قلب حبيبى

حينما يظلم حلمى

حينما يظلم حلمى

حينما يظلم حلمى

حينما يذهب فى رحلة قارب

تاركا عينىّ فى صمت الفراغ

يظهر الطائر مشتوقا على

أغصان جدول

وعلى الشرفة تمتد العناكب

حينها تنفرط النجمات

فى أرض الشقوق

تنفر القطعان فى كل طريق

تغرب الشمس إذن وقت الشروق

حينها ترتجّ شاشاتى

ويسودّ البريق

وصراخ البدر فى كل النوافذ

أدفئونى

فأنا بردان فى هذا الفضاء

أدخلونى فى القلوب

حينما يظلم حلمى

أترك القرية مطرودا وحيدا

سائرا بين الحقول

ربما تعوى ذئاب

عابثات فى الطلول

ربما يرتجّ قلبى

حينما يسمع قرعا للطبول

ربما تصطكّ أسنانى من البرد

ومن أشداق غول

ربما أبحث فى الآبار عن قطرة ماء

ربما أبذل جهدا

علّنى أذكر خيطا من ضياء

ربما أرجو كثيرا

طائرا يظهر فى جو السماء

حينما يظلم حلمى

تسقط العشبة منى

تسقط العشبة منى

همستها

همستها

كان القمر القارب

يمضى وحبيبة قلبى

فى الآفاق

يتهادى فوق

جبال السحب

البيضاء

وأنا فى شرفة منزلنا

أنظر

حين توارى

القمر القارب

فى غابات الليل

كان فؤادى

يتلقى همستها

أن لقاء

فى زمن قادم

سوف يكون

ضياع ماء البئر

ضياع ماء البئر

هل طاف على جنتى طائف

تتساقط أعنابها كالهشيم

وأصبح تمر نخيلى صريم

بيوت القرى خاوية

كان هذا الماء يناغى جنانى الكثيرة

ويروى الطيور

ويروى الحجيج

ويروى رضيعى الوحيد

فأين أرى موضع البئر كى أحفره

منيتى أن أبصره

لم يجئنى الملاك

لكى يخبر القلب

عن موضعه

ليته أخبره

" حلقى جاف

وأنا فى طريقى وحيد

وحيد

ما من قديس تأخذه الرحمة "([1])

هل يأمر الرب أن أذبح ابنى

قربانا

أدفن فى قاعه جثته

علّه يتفجر من مقلتيه الوهج

والمدى يبتهج

أم ترانى أعود

لكهفى

---

(1)عن قصيدة الملاح القديم لكولردج .

السحيق

وأغلق بابى

وأحفر قبرى

ثم أنام

وينهال فوقى

هذا الرغام

عودة الطائر المقدس

عودة الطائر المقدس

يقول رفيقى الصحفى

إن الوضع فى الأرض الحبيبة

يبكّى القلب والعينا

يقول رفيقى :

النسمات محترقة

وأسراب الحمام تفر محترقة

وكم قالت لنا نشرات أخبار

بأن الأرض محترقة

" يحلق طائر عيناه من زمن سحيق

وقد شاخت قوادمه الرمادية "

هنا الأشجار محترقة

جلست على غدير الماء

جلست أعمد الأصحاب

عيون رفاقى السمراء

تطل علىّ محترقة

جلست على بحار الدم

دخلت البيت مكتئبا

أنرت النور لم يشعل

مصابيح البيوت الآن محترقة

فتحت صنابر الأمواه

تصب الدم

جلست ، غفوت ، ثم صحوت

بقايا البيت محترقة

" جناحا طائر سدا عيون الشمس

منهكة قوادمه "

جلست على لهيب النار

جلست أعمد الأصحاب

صراخ فى شوارعنا

أما عاد الحبيب إليك ؟ !

هل عادت بقاياه ؟

ألم تتوقف الأقدام عن سير يدميها ؟

صراخ فى شوارعنا

رأيتك تعبرين الليل فى بوابة الموتى

وعدت فأين كفاه ؟

ألا تتلى تعاويذ ؟

ألم ينهض ؟

صراخ فى شوارعنا

" يحلق طائر عيناه من زمن

سحيق "

يؤم الأنبياء محمد بالمسجد الأقصى

ويعرج للسماوات

وتبقى الأرض محترقة

ومن ملك الملوك

رسالة " سلم لكى تسلم "

ولم أسلم

" جناحا طائر سدا عيون الشمس

منهكة قوادمه

ومحترقة "

رأيت تراب طائرنا

يدمدم كالأعاصير

وذرات التراب تطل

صاعدة

ألا يا طائر الإصباح

عدت الآن من موتك

جلست على غدير الماء

جلست أعمد الأصحاب

عيون رفاقى السمراء

تطل علىّ مبتسمة

الفهرس

الفهرس

الإهداء	2
ذكرى	3
ثلج	5
أطفال	9
حليب	13
وداع	17
فأس	21
بعث	25
حصار	29
صلاة	32
رحيل	39
اغتيال الصقر المجنح	49
نباح	53
درب	57
خوف	63
أبي	67
أمي	73
جدي	75
كآبة	77
لقاء	81
حينما يظلم حلمي	83
همستها	87
ضياع ماء البئر	89
عودة الطائر المقدس	